هاجس الموت في شعر صلاح عبد الصبور

الدكتور/ متقدم الجابري

جامعة الحاج لخضر ـ باتنة

قضية الموت في شعر صلاح عبد الصبور محور من محاوره الأساسية، كما هي محور من محاور الوجود الإنساني والبشري، فإذا تأملنا نتاجه الشعري كله عبر الدواوين الستة لوجدنا هذا الحس كثير الإطلال علينا حتى في القصائد التي لا تتحدث عن الموت أو التي تموج بإحساس الحياة.

<u>Résumé</u>:

Le sujet de la mort dans la poésie de salah abd-el – saber represente un de ses axes principaux, comme il représente l'un des principaux axes de l'existence humaine.

En regardant dans ses œuvres poétiques on découvres que ce sentiment revient le plus souvent, même dans les proses qui me parlent jamais de la mort, autrement dit celles qui sont pleines de vie.

" الموت والحياة أمران يتعلقان بالإنسان من حيث وجوده في هذا الزمن ،فالحياة هي البداية التي يأتي فيها الإنسان ليقضى سنين معدودة من عمر الزمن على هذه الأرض والموت هو النهاية التي تعصف بهذه الحياة وتعيد الإنسان إلى رحم الأرض نافضا يديه من الدنيا ليتحلل في ذرتها ويمكث في باطنها إلى حيث لايعلم إلا الله." [1]

وإذ كانت الحياة هي المدة الزمنية التي يحياها الإنسان و يحس فيها بوجوده، يحاول ترسيخ أقدامه في الأرض مدفوعا بالأمل والشعور والحركة والإيمان،فان الموت هي اليد القوية التي تقتلع هذه الآمال والأحلام وتقطع عليها جسور العبور وخيوط الامتداد لتسكن الإنسان هوة اللحد السحيقة، وتحوله إلى أديم يضيع في أجزائها التي لايسكنها إلا الفناء.

وإذا كانت مشكلات الحياة الإنسانية قد وجدت في الإنسان الاهتمام الذي تستحق والعناية الكافية من أجل حلها ووضع حد لنهايتها، فان الموت قد ظل بالنسبة له هو المشكلة الكبرى والمأساة الخانقة ،والهاجس الباعث لقلقه وحيرته وضياعه ،فبمجرد التفكير فيه،مجرد التصور للناهية يجعل الإنسان يرتعد من الخوف ((فالبشرية تنفعل حين تواجه حقيقة موتها بالذات ،وتختلف مظاهر هذا الانفعال من إنسان لآخر فالحقيقة الإنسانية العادية لاتقوى بادئ الأمر على احتمال هذه الحقيقة والقبول بها فتهرب إلى كل مايبعدها عن التفكير في الموت أما القلة الخلاقة التي تحدق بالموت باستمرار فيعتريها الضجر والوحدة واليأس والكآبة ومشاعر أخرى يختلف بين عبقري وأخر)) [2].

فالموت هاجس كل الأحياء ،يتهددهم كل لحظة ،ويبعث في نفوسهم الخوف والرعب ، فنحن نخشى المستقبل والمجهول والزمان ونخشى حتى الحياة ،فخوفنا من الموت كما يقول ادجار آلان بو:((إنما يعبر عن فزعنا من أن ندفن أحياء ،وكأنما نحن نخشى ألا يكون موتا كاملا، أو كأنما نتصور أننا سنظل أحياء حتى في موتنا نفسه أمواتا أحياء ،وكأن الموت ليس موتا محضا ،بل شعورا حيا بالفناء)) [3].

لكن الإنسان على الرغم من خوفه من الموت، وهذه النهاية المفزعة، يحاول بكل قواه أن لا يستسلم لليأس، بانيا آماله على أساس خلوده وبقائه على أساس أن الموت لا يستطيع –على الرغم – من إيقاف نبضات الحياة فيه، أن يقضي على قدرة الإنسان التي تستطيع أن تصمد في وجهه وتتحدى قبضته الرهيبة وذلك بالفكر الخلاق الذي يبقى إبداعه حيا إلى آبد الآبدين.

فالقلق الإنساني المتزايد والتفكير الدائم بالموت عند بعض الفلاسفة الوجوديين الذين

يؤمنون بانتهاء الإنسان إلى العدم حيث لا بعث ولا حساب ،قد كان الهاجس الخانق الذي استحوذ على أفكارهم ،وجعلهم يرتعدون خوفا من غموضه . بينما كان الموت عند المؤمنين بالآخرة وبالبعث والنشور، انتقالا من مرحلة إلى مرحلة ،. فالحياة بالنسبة لهؤلاء كانت جسرا يفضي إلى الآخرة.

وإذا كان الشعر العربي في مراحله المتعددة قد عرف ظاهرة الموت ،وكان للشعراء منها مواقف تتأرجح – في أغلبها– بين اللوعة والرفض والتسليم والشك واليقين فإن للشعراء المعاصرين رؤيتهم الخاصة في التعاطي مع هذه الظاهرة اعتمدت في بعض تصورها على رؤية الشاعر الغربي :((فلا يمكننا أن ننكر التأثير المباشر وغير المباشر لشعر اليوت الذي يعنى الحضارة الغربية وإفلاسها وموت الإنسان الوحي وبخاصة في قصيدته " الرجال الجوف"و " الأرض الخراب")) [4].

ولكن من الخطأ الظن بأن التأثير الغربي وحده كان السبب في الاهتمام بهذه الظاهرة في شعرنا الحديث ، فقضية الموت تكاد تكون هاجس الإنسان بشكل عام ، ولكن الجديد في هذه القضية –عند الشاعر العربي المعاصر– هو في الرؤية وشموليتها التي تختلف عن الرؤية المحددة للشاعر القديم.

ويعتبر صلاح عبد الصبور من الشعراء المعاصرين الذين أولوا اهتماما كبيرا لقضية الموت في أشعارهم لما تمثله من نقطة تحول خطيرة في مسار الإنسانية، ولم يكن حديثه عن الموت حديث الفيلسوف أو الزاهد وإنما كان جناحا من أجنحة الشاعر المدرك لحقائق الأشياء وجوهرها وفي ذلك يقول :((إن الإنسان يستطيع أن يشهد موته الخاص في حياته كما يقول الفلاسفة الوجوديون ،فما دمت أدرك أن كل شيء يموت....الثمار والأشجار والحيوان والطير،بل والصخر والجبل . وما دمت أرى رفاقي من حولي يتساقطون صرعى واحدا إثر الآخر فما بالي إذن لا أعرف أني ميت، فإذا تيقنت من هذه المعرفة وثبتت وقائعها في وجداني وخلدي، فأنا إذا أعيشها في كل لحظة فكأني أموت كل لحظة أو كأنني أعيش موتى.)) [5] .

ذلك كان حديثه عن الموت ،أما في شعره فقد كانت قضية الموت محورا من محاوره الأساسية، كما هي محورا من محاور الوجود الإنساني والبشري. فإذا ما تأملنا نتاجه الشعري كله عبر الدواوين الستة لوجدنا هذا الحس كثير الأطلال علينا ،حتى في القصائد التي لا تتحدث عن الموت أو التي تموج بإحساس الحياة كقصائد الحب مثلا ، وسأعرض هنا أهم القصائد التي تطرح فكرة الموت كظاهرة إنسانية لها أبعادها التي تحدد رؤية الشاعر لها . و بدايتنا مع قصيدة " الملك لك "([6]) وهي القصيدة التي يطرح

الشاعر من خلالها تساؤلات عن مصير الإنسان الذي يعيش منطلقا في الوجود حالما محبا ،وفي لحظة من اللحظات يفقد إلى الأبد حيويته ونشاطه وصورته الإنسانية ،ويتحول إلى جثة هامدة ،أو إلى جيفة تتحلل في باطن الأرض داخل حفرة موحشة لا خلاص له منها ولا مهرب يقول":

وفي حفرة من حفار الطريق

وهبناه للأرض باسم النبي

وجاء رجال، رجال غلاظ

ودقوا الحديد على قبره

حديد الطريق

أواحدتي...فكرة طوفت برأسي ذاك المساء السحيق

أكان يدق صليب الحديد؟

على رأسه

يوم كان قويا تضج الحياة بشريانه، ويفوح العرق

لو الأرض لم تزدر ده إليها ، أكان الحديد عليه يدق ...؟

ومن موته انبثقت صحوتي

وأدركت يا فتنتي أننا

كبار على الأرض لا تحتها

كهذا الرجل.

يطرح الشاعر من خلال هذه المقطوعة تساؤلات جوهرية تتعلق بواقع الإنسان ومصيره فإذا كان مآل كل إنسان هذه الحفرة الضيقة من الأرض بعد حياة قصيرة تعج بالنشاط والانطلاق ولا تهدأ .فلماذا يظن الإنسان نفسه سيد الأرض بصلفه وغروره وتكبره ، فليترفق ولينظر من حوله ((فما أديم الأرض إلا من هذه الأجساد)) فهذا الإنسان الرمز الذي يتحدث عنه الشاعر ، قد كان بالأمس قويا يدق الأرض بقدميه تضج الحياة بقلبه ، وفي أمسية من الأمسيات ،مضى إلى غروبه الذي لا شروق بعده إلى حيث لا قدرة له على المواجهة ، نافضا كفيه من الحياة بكل ما فيها من متع ، مستسلما لمشيئة قوية ، أرغمته على الصمت المطبق والعميق الذي لا سبيل له بمواجهته، فهو الذي كان

يختال في الأرض فخورا بنفسه أصبح ذكرى من الذكريات ، جثة نخرة مصلوبة تحت الأرض يدق الحديد على بقاياه ،تدوسه الأقدام ولا يشعر بالنقص أو الإهانة.

وفي قصيدة " الحرية و الموت " ([7]) يرى عبد الصبور بأن الموت مقدور على كل البشر، وموت الإنسان ليس نهاية لحياته بقدر ما هو حياة مستمرة بما خلفه من آثار تدل على بقائه بالرغم من فناء جسده وفي التراب يقول في مقطع من القصيدة :

أقول لكم بأن الموت مقدور وذلك حق
ولكن ليس هذا الموت حتف الأنف
تعالوا خيروا الأجيال أن تختار ما تصنع
لكي توسع
لمن يتبع
فلن تختار غير الموت
وهل من مات لم يترك له رسما على الجدران
وخطأ فوق ديباجيه
وذكرى في حنايا قلب
وحفنة طينة خصبه
على وجه الفضاء الجذب

إن الموت الإنساني هو أن لايكون هناك أهداف تخلد بعد الموت ويحس المرء أمامها بأنه جزء منها وأنه مات من أجلها ، والذي تخلده آثاره يبقى في ذاكرة التاريخ ووجد ان الأجيال على مر العصور ، إن الذي يفنى هو جسده . أما ما يخلفه من علم وفكر-وهو الأهم-فيبقى لتستفيد منه الأجيال التي بعده.

فالشعراء والكتاب والمفكرون من سحيق الأزمان مازالوا يعيشون معنا بفكرهم ووجدانهم وكأنهم فارقونا من زمن ليس ببعيد، وحتى الذين لم يخلدوا حياتهم في صفحات التاريخ فإنهم يتركون (رسما على الجدران) كالحضارات القديمة التي خلدت حياتها بالرسومات والرموز التي كانت لغة تواصل بينهم أو (خطا فوق ديباجة) أو (ذكرى في حنايا قلب).فالميت هو الذي لا ذكرى له جاء في صمت ورحل في صمت ،لم يخلف وراءه أثرا يمنحه البقاء والخلود في ذاكرة الأجيال.

أما قصيدة " موت الإنسان" [8] فإنها إدانة للذين يموت الإنسان بداخلهم وهم أحياء وهي دعوى إلى المحبة والإخاء الإنساني :

ألا ما أشرف الإنسان حين يشم في الإنسان

ريح الود والألفة

ألا ما أشرف الإنسان حين يرى بعيني إلفه الإنسان

ما يخفي من اللهفة

إلى إنسان

ألا ما أتعس الإنسان حين يموت في أعماقه الإنسان.

إن الإنسان الحي هو الذي يحيا بمن حوله بالتواصل والمحبة والألفة، هذه هي الخصال هي التي تجعل لحياته قيمة ويحس بوجوده ودوره في الحياة، فالتواصل الإنساني هو منطلق كل الأديان وهو الذي يمكن الإنسان من الاستمرار والتعايش في أمن واستقرار. وإذا ماتت الرحمة والمحبة في قلوب الناس فقد أعلن الإنسان عن موته الحقيقي ،فليس الموت الحقيقي انقطاع الإنسان عن الدنيا والرحيل عنها ، لكن الموت المتجدد والمستمر في حياة الإنسان هو موت الإنسان الحي ، موت كل شيء ، مشرق ومضئ في حياته إذ تصبح الحياة غابة تتصارع فيها الوحوش الآدمية والغالب فيها يضمن استمراريته وحياته أما المغلوب فلا مكان فيها ولينحسن منها إلى الأبد.

فحين يختل ميزان الكون ويفقد الإنسان إنسانيته ، تصبح الحياة مسرحا للصراعات المختلفة ويحس الإنسان بوجود يتهاوى في قرارات اليأس والسأم حينئذ يصبح الموت مطلبا للإنسان الذي لا يقوي على مواجهة الحياة الزائفة ((فتنطلق الذات صارخة في وجه الكون التعس الذي تمثل الحياة فيه اكناوية عريضة ، لأن الشيء الحقيقي فيه –فيما يبدو–هو الموت وليس الحياة)) [9] وهذا ما عبر عنه صلاح عبد الصبور في قصيدة " مذكرات بشر الحافي" حين قال :

تعالى الله، هذا الكون موبوء ولا برء

ولو ينصفنا الرحمن عجل نحونا بالموت

تعالى الله ،هذا الكون ، لا يصلحه شيء

فأين الموت، أين الموت، أين الموت [10]

فالشاعر هنا يدعو الموت دعوة العاشق المتيم ليخلصه من أوجاع الحياة ومن وطأة هذا الكون الموبوء الذي لا شفاء للإنسان منه إلا بالموت ولا خلاص له إلا من هذه الحياة، فاستحالة إصلاح الكون جعلت الموت حلا نهائيا له .

إن الرغبة في الموت كحل ، هي نزوع للخلاص من مأساة عميقة يعاني منها الإنسان في حالة من الحالات التي لا يجد لها إلا بالنهاية التي يتصورها المخرج الوحيد والأسهل ، وأنها نوع من الإيمان الذي يأمل في النهاية بداية جديدة وخروجا من عالم الشرور والآثام إلى عالم الفضيلة الذي يتعجل الرحيل إليه ن والشاعر يرى أن الموت هو الوسيلة الوحيدة التي تنتشله من وباء الكون . لذلك كان يصرخ أين الموت ؟.

وتطرح قصيدة " تأملات ليلية "[11] رؤية فلسفية عميقة لتجربة الموت استدعتها جلسة ليلية مع أصدقاء الشاعر صلاح عبد الصبور ، كثرة الحديث فيها عن الموت وعن مصير الإنسان بعد الموت فجاءت هذه القصيدة [12] تعبيرا عن تساؤلاتهم وتحدد رؤية صلاح عبد الصبور لتجربة الموت هذا السر الذي لا يدركه أحد إلا الإنسان وملك الموت الموكل به لحظة يبلغ نهايته ، فكيف عبر صلاح عبد الصبور عن مصير الإنسان بعد الموت لحظة يصبح وحده بعيدا عن هذا العالم الذي ارتبط به بأفراحه وأحزانه وأحداثه فما عساه يكون ؟

أو أحد منا أم تنقطع بيننا السبل فيتوه بيننا يبحث عن كل ماعاشه وعن كل ما أحبه وعن كل ما فهمه .

أبحرت وحدي في عيون الناس والأفكار والمدن

وتهت وحدي في صحاري الوجد والظنون

غفوت وحدي ، مشرع القبضة، مشدود البدن

على أرائك السعف .

فكأنما اجتاز الشاعر المسافة التي تفصل بين الحياة والموت ويصف الرغبة في العودة إلى الدنيا ، فيجد نفسه وحيدا في عالمه الجديد لا يعرفه فيه أحد ، فهو يبحر ولكنه لا يجد في إبحاره إلا الأفكار والعيون والمدن والتيه في الصحاري ، فهي روحه التي انطلقت من جسده المسجى على أرائك السعف لتعود إلى كل شيء أحبته ، تطوف في كل الزوايا والحواري باحثة عن ذكرى تنتشلها من غياهب التيه ولكنها تجد نفسها تائهة في شوارع المدينة وحوانيتها وفنادق المشردين :

طارق نصف الليل في فنادق المشردين

أوفي حوانيت الجنون

سريت وحدي في شوارع لغاتها ، سماتها ، عماء

أسمع أصداء خطاي

ترن في النوافذ العمياء.

بعد هذا التشرد في الطرقات والأفكار وبعد التجول الدائم في طرقات المدينة يتساءل الشاعر عن مصير هذا الجسد المجسى حين ينقضي الوجود البشري بنبله وطموحاته وإبداعه ، كيف يتحول هذا الجزء الكثيف من وجودنا وإلى أي شيء يتحول ؟ إلى قطعة من صخر فمكاننا في (أكتاف الجبل الجرداء) أو (في حضن الأغوار المهجورة) بعيدا عن وسخ الطرقات وضيعة الزنزانات وهوان الخمارات:

وكأني قطعة من صخر

تهتف بالأقدام

رديني في أكتاف الجبل الجرداء

أوفي حصن الأغوار المهجورة

وخذني من أرصفة الطرقات

أو زنزانات السجن المتسخة

أو أعتاب الخمارات

وإن كان الشاعر هذه الكومة من الرمل فإنه يصرخ بالأيدي التي تحمله لست كأي رمل:

كأني كومة من رمل

تهتف بالأيدي

ذريني بين شطوط البحر

ألقيني جنب طيور الزبد البيضاء

صونيني عن آنية الزرع الشمعي

أو عن طرق الأمراء.

يتمنى الشاعرإن كان جسده سيصبح رملا ، فليكن رملا تغسله أمواج البحر تحتضن الشاطئ وتبلله بحبها ونقائها ، وتسطع فوقه أشعة الشمس متوهجة بحنانها ودفئها فوق الأمواج المزبدة كأنها طيور مرفوفة بيضاء تبقية في عالم من الطهر والحرية والانطلاق ، ويتمنى أن لا يصبح رملا تغرس فيه النبتات الميتة ولا تدوسه أقدام الأمراء

، ولا يطحنه كبرياؤهم المقيت وزهوهم المريض . أين يكون هذا الجسد وسط هذا العالم المكثف بالأشياء؟

هل أنا هذا النهر المتدفق ؟ إن كنت سأصبح هذا النهر فلأجف، وليتوقف جريانه إن كان مصيره الضياع :

كأني نهر

يهتف بالمجرى

أرجعني للقمم البيضاء

حتى لا يشربني الحمقى والجهلاء

حين ينهل الحمقى والجهلاء من الماء الصافي لا يزدادون حكمة ولا معرفة فكأن الماء مضيع، وان كان ولا بد أن أكون نهرا فلأعد إلى المجرى . إلى المنبع لا أحتبس عن التدفق ولا أصبح عرضة للحمقى والجهلاء.

لقد جال الشاعر بكل شوارع المدينة فتش عن الأصحاب ، جال في فنادق المشردين وحوانيت الجنون ، وأنفت روحه من ضياع المدينة وهوان الخمارات ووسخ الزنزانات، وأخيرا وجد نفسه وحيدا تائها مبحرا وحده، وأدرك في النهاية أن لا معين في غربته الأبدية .

لا شيء يعنيك.......لا شيء يعينك

لاشيء يعينك........لا شيء يعينك

لاشيء يعينك.......لا شيء

لا شيء يعينك

لا شيء.....

لا....

ويتجلى هاجس الموت كذلك في إحساس الإنسان بالاغتراب والضياع عندما تصبح المدينة وحشا يبتلع كل شيء ،تتحطم على جدرانها قيم الإنسانية ،يصبح الإنسان مجرد رقم عابر من ملايين الأرقام، فاقدا كينونته ووسمه الإنساني ،أو ورقة خريف تدوسها أقدام المارة دون انتباه ،ففي المدينة ينتهي كل شيء بموت الإنسان ،فلا تبقى منه غير ذكرى عابرة قد تطوف بصحبه المقربين ،يذكرونه مدة ثم يمضون لحياتهم لا يعاودون ذكراه إلا قليلا ،يناله منهم دعاء آليا بالرحمة له يقول في قصيدة"أغنية للشتاء":

......وقد أموت قبل أن تلحق رجل رجلا

في زحمة المدينة المنهمرة (1)

أموت لايعرفني أحد

أموت لايبكي أحد

وقد يقال، بين صحبي، في مجامع المسامرة

مجلسه كان هنا، وقد عبر

فيمن عبر

يرحمه الله!

أما قصيدة " تنويعات " ففيها يرد صلاح الصبور على الشاعر الانجليزي " وليم بتلرييتس" الذي يقول " أن الإنسان هو الموت" محاولا أن يحوك إشراكا من اليأس الذي يقتل الأمل ويفقد الإنسان الشعور بالحياة ومواصلة العمل والعطاء ، يقول صلاح عبد الصبور مخاطبا " وليم بتارييتس":

يا وليم بتلرييتس

كم أضنيت يقيني بفكاهتك الأسيانة

بذكاء القلب المتألم

لكني أسأل:

إن كان الإنسان هو الموت

فلماذا يبتسم هذا الطفل الأحور

ولماذا جاز البحر المزبد

حتى حط على شباكي الشرقي الموصد

هذا العصفور الأسود

هذا البيت

(الإنسان هو الموت).

فالشاعر صلاح عبد الصبور كما رأينا هنا لا يوافق " وليم بتلرييتس " على رأيه أن " الإنسان هو الموت"، إذ يعتبر الإنسان بذرة خالدة، سيال دائم لا ينقطع ،يتحرك

يجري مع الزمن ويتشابك معه في مسيرة أبدية لا تتوقف، فإذا كان الموت هو النقطة التي تترافق مع الوصول إلى النهاية ، فليكن الموت بالنسبة للإنسان إذا حافزا على تحريك الزمن ،على صنع اليقظة الإنسانية المتجددة فيه، لذلك فإن الشاعر يطلب من الله أن يلهم الإنسان الإرادة ويمنحه القدرة على صنع الحياة ، القدرة على الشهادة والتضحية والفداء ، فيقول:

علمنا أن نتمزق بإرادتنا العمياء

في منقار الأيام

علمنا أن نتبعثر في الريح الملعونة

أن نتعلق بالأشجار المسنونة

أن لا نمثل للموت

علمنا أن نتفتت أشلاء دموية

نتنفس كاليرقات الدبقة

في قيعان الزمن الأتي

حتى نخرج للشيطان الضوئية

إن الخروج إلى الشطآن الضوئية مسؤولية الإنسان الذي يدرك أن الموت ليس نهاية الحياة ، بل هو بداية لها ، خلود أبدي فيها ، ولو كان الموت هو النهاية ، هو الخاتمة التي ليس من بعدها هدف ، لما كان هناك أي معنى للإقدام ، للفداء، للتضحية ،للعطاء الذي يبذل النفس رخيصة في سبيل استمرار الحياة ،في سبيل أن تظل تلك الشعلة وضاءة وهاجة تشع بنورها المقدس إلى أبد الآبدين.

([1]) د. محمد مفيد قميحة:"الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر،منشورات دار الآفاق الجديدة،بيروت، ط،1981، "ص 375 .

([2]) د. محمد محمود :" الحداثة في الشعر العربي المعاصر،بيانها ومظاهرها"،دار الكتاب اللبناني،بيروت،ط1 1986 ص 286.

([3]) د. زكريا إبراهيم :" مشكلة الإنسان " دار مصر للطباعة (مجهولة الطبعة وسنة الطبع ص 113.

([4]) د. محمد حمود :" الحداثة في الشعر العربي المعاصر " ص 286.

[5] مد يحة عامر :" قيم فنية وجمالية في شعر صلاح عبد الصبور " الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986 ،ص 251

[6] ديوان صلاح عبد الصبور :دار العودة،بيروت،1986 ، ص 57 .

[7] ديوان صلاح عبد الصبور: ص 166.